إحذروا من صفاتهم

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (7)البقرة

فلما ذكر الله -تبارك وتعالى- وصف المؤمنين الذين يهتدون بالقرآن، وهم أهل التقوى،الذين أمتلئت قلوبهم تعظيما لله تعالى ولشرعه ، وقابلوا كل أمر ونهي من الله بقول سمعنا وأطعنا، قابل هؤلاء بأضدادهم وهم الكفار، فهذه هي الفئة الثانية التي ذكرها الله ووصفها في صدر هذه السورة الكريمة سورة البقرة، فقال :(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) [سورة البقرة:6] هؤلاء الذين يُصرون على الكفر والضلالة، وقد قضى الله -تبارك وتعالى- بعدم اهتدائهم، يستوي الحال: حال الإنذار وترك الإنذار في حقهم فهم لا يؤمنون.

هؤلاء الكفار ذكر الله -تبارك وتعالى- هذه الحقيقة التي لا يعلمها إلا هو وتقدست أسمائه، الذي يعلم الخفايا والخبايا وما تُكنه الصدور وتنطوي عليه القلوب، فذكر أن هؤلاء لا يُجدي معهم دعوة ولا نُصح، ولا يفيد معهم ولا يُجدي الإنذار ، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ من أجل أن لا يتأس ولا يحزن لعدم إيمانهم، فقد أخبره الله -تبارك وتعالى- سلفًا بأن دعوته لن تُجدي مع هؤلاء الناس، وإنما غاية ما هنالك أن ذلك يكون فيه من إقامة الحجة عليهم وقطع المعاذير، أما القلوب فإنها مُغلقة مُغلفة كما سيأتي قد طبع الله عليها وختم كما ختم على الأسماع وجعل على الأبصار غشاوة.

فإذا علم النبي ﷺ مثل ذلك لم يثقل عليه إعراضهم، وقد جاء ذلك كثيرًا في كتاب الله -تبارك وتعالى- ينهاه ربه عن الحُزن لعدم إيمان هؤلاء الكفار :(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ)[سورة الكهف:6] أي: مُهلك نفسك (عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)[سورة الكهف:6] وإذا عرف المؤمن ذلك فإنه يكون أيضًا مُتسليًا بمثل هذه الآية، فلا يتأس ولا يحزن حينما يبقى فئام من الكفار لا يستجيبون لدعوة الإسلام، والله -تبارك وتعالى- قد قضى أن أكثر الخلق لا يؤمنون، وقال لنبيه ﷺ :(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [سورة الأنعام:116] فهؤلاء يبقون على كفرهم ولكن المؤمن يؤدي رسالته ودعوته ويبقى أجره وافيًا عند الله -تبارك وتعالى- لا ينقص، النبي ﷺ أخبرنا: (أن النبي يأتي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان، والنبي وليس معه أحد). (خالد السبت)

وأخبرنا عن نوح عليه السلام أنه ما آمن معه إلا قليل، مع طول المدة التي بقيها في قومه بقي ألف سنة إلا خمسين عامًا، قبل الطوفان يدعوهم ومع ذلك لم يستجيبوا، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-لا ينقصهم نُصح وصدق في الرغبة في هداية قومهم، ولا ينقصهم العلم بمُقتضيات الدعوة ومُتطلباتها، ولا ينقصهم البيان والأساليب الصحيحة التي تُعرض بها الحقائق، ومع ذلك يبقى من أعمى قلبه غير مُستجيب لهذه الدعوة.خالد السبت

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

اختلف العلماء في تأويل هذه الآية:

فقيل : هي عامة ومعناها الخصوص فيمن سبقت عليه كلمة العذاب ، وسبق في علم الله أنه يموت على كفره ، أراد الله أن يعلم الناس أن فيهم من هذا حاله دون أن يعين أحداً .

وقيل : نزلت في رؤساء اليهود ، وقيل : نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب .

قال القرطبي: والأول أصح

قال الشنقيطي: قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

⇦هذه الآية تدل بظاهرها على عدم إيمان الكفار، وقد جاء في آيات أخر ما يدل على أن بعض الكفار يؤمن بالله ورسوله كقوله تعالى : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) الآية.

وكقوله (كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) وكقوله : (وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ) ، ووجه الجمع ظاهر وهو أن الآية من العام المخصوص لأنه في خصوص الأشقياء الذين سبقت لهم في علم الله الشقاوة المشار إليهم بقوله (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ) .

ويدل لهذا التخصيص قوله تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} الآية وأجاب البعض بأن المعنى لا يؤمنون مادام الطبع على قلوبهم وأسماعهم والغشاوة على أبصارهم فإن أزال الله عنهم ذلك بفضله آمنوا. اهـ

🗐يجب الحذر من صفات الكافرين يعلمون الحق ويستكبرون، ويبررون، ويبحثوا عن حجج يدافعوا فيها عن باطلهم، وكثير من ابناء المسلمين عافانا الله واياكن، هذا طريقه ليرضي هواه ونفسه، يبرر معاصيه ويدافع عن باطله وهو يعلم الحق لكن غلب عليه الهوى فهوى به في طريق الغي.

🗐وهذا مثال عملي لما كانوا عليه ، كان النبي في المسجد يقرأ سورة غافر(حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)(4)

☜وكان الوليد بن المغيرة يسمع قرأته ففطن له (أي انتبه) رسول الله وأعاد الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه فقال : "والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الأنس ولا من كلام الجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وأنه يعلو وما يعلى عليه".

أيقن أن الاسلام دين الله وقال مقولة في القرآن سجلها التاريخ ومع ذلك مات كافرا ونزلت فيه آيات الوعيد

🖂فهذه نهاية كل من يستكبر على الحق، ويسلك سبل الشيطان في تبرير الباطل والدفاع عنه.

وقوله تعالى (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) المعنى لا يؤمنون مادام الطبع على قلوبهم وأسماعهم والغشاوة على أبصارهم فإن أزال الله عنهم ذلك بفضله آمنوا.

قوله تعالى (إن الذين كفروا) الكفر لغة الستر والتغطية ، وكل شيء غطى شيء فقد كفره ، والكافر الزارع لأنه يغطي البذر بالتراب .

✉ وشرعاً : ضد الإيمان ، فهو عدم الإيمان بالله ورسله ، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب

قوله تعالى (أَأَنْذَرْتَهُمْ) الإنذار : هو الإعلام المقرون بالتخويف

قوله تعالى (أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) فيه دليل على أنه ينبغي إنذار الكفار وتحذيرهم من غضب الله إن لم يؤمنوا

ولماذا ننذر الكفار لعدة أمور:

❶ : لأن الله أمر بذلك

فقال تعالى (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)

وقال تعالى (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى)

❷ : ننذرهم رجاء انتفاعهم

⇦كما قال الواعظون من بني إسرائيل (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

❸: تبرئة الذمة وقياماً بالواجب

كما في الآية السابقة (مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ) أي قال الناهون : إنما نعظكم لنعذر عند الله بقيامنا بواجب النصح والتذكير.

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)

الختم: الاستيثاق منه حتى لا يصل إليه خير ولا يخرج منه شر، فالمعنى: أن الله ختم على قلوب هؤلاء وطبع عليها، بحيث لا يخرج منها شر ولا يدخل إليها خير ، كالقارورة إذا ختمتها وطبعت عليها، لا يخرج شيء مما فيها، ولا يصب إليها شيء آخر

⇦فلا يعون ما ينفعهم، ولا يسمعون ما يفيدهم وعلى أبصارهم غشاء وغطاء تمنعها من النظر إلى الذي ينفعهم، وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق

قال ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم : فالختم على القلوب : عدم وعي الحق من الله ، فلا يفهموا مخاطباته ولا يتفكرون في آياته ، وعلى السمع : عدم فهمهم للقرآن إذا تلي عليهم أو دعُوا إلى وحدانيته ، وعلى الأبصار : عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته .

✉وهذه الثلاث : هي المصادر التي يحصل بها العلم، والمعرفة، والفهم، والاعتبار، والاتعاظ.

إن الناس أربعة أصناف : كافر ، ومنافق ، ومؤمن ، ومسلم عاصٍ ، ولكل واحدٍ من أولئك قلبه الخاص به ، ومن طبع عليه من الكفار والمنافقين : فهو طبع كلي ، لا يدخل إليهم نور الإسلام ، ولا يخرج منهم ظلمة الكفر ، وأما الطبع على قلب المسلم العاصي : فهو بحسب ما ارتكب من ذنوب يكون حاله ، وهو دائر بين قلبين ، وقد يصل حاله لقلب المنافق - أو الكافر - ، وذلك بحسب زيادة المعاصي تأثير المعاصي في قلبه ، وتكاثرها عليه. صالح المنجد

قال ابن القيم رحمه الله: ((وَأَمَّا صِيَانَةُ الْإِيمَانِ فَإِنَّ الْإِيمَانَ عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ السُّنَّةِ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ ، وَقَدْ حَكَاهُ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ .

وَإِضْعَافُ الْمَعَاصِي لِلْإِيمَانِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالذَّوْقِ وَالْوُجُودِ. فَإِنَّ الْعَبْدَ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ - «إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ) وَذلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: 14] . فَالْقَبَائِحُ تُسَوِّدُ الْقَلْبَ، وَتُطْفِئُ نُورَهُ. وَالْإِيمَانُ هُوَ نُورٌ فِي الْقَلْبِ. وَالْقَبَائِحُ تَذْهَبُ بِهِ أَوْ تُقَلِّلُهُ قَطْعًا. فَالْحَسَنَاتُ تَزِيدُ نُورَ الْقَلْبِ. وَالسَّيِّئَاتُ تُطْفِئُ نُورَ الْقَلْبِ. وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ كَسْبَ الْقُلُوبِ سَبَبٌ لِلرَّانِ الَّذِي يَعْلُوهَا. وَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْكَسَ الْمُنَافِقِينَ بِمَا كَسَبُوا. فَقَالَ: {وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا} [النساء: 88] . وَأَخْبَرَ أَنَّ نَقْضَ الْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَى عِبَادِهِ سَبَبٌ لِتَقْسِيَةِ الْقَلْبِ. فَقَالَ: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [المائدة: 13] . فَجَعَلَ ذَنْبَ النَّقْضِ مُوجِبًا لِهَذِهِ الْآثَارِ مِنْ تَقْسِيَةِ الْقَلْبِ، وَاللَّعْنَةِ، وَتَحْرِيفِ الْكَلِمِ، وَنِسْيَانِ الْعِلْمِ

.فَالْمَعَاصِي لِلْإِيمَانِ كَالْمَرَضِ وَالْحُمَّى لِلْقُوَّةِ، سَوَاءً بِسَوَاءٍ. وَلِذَلِكَ قَالَ السَّلَفُ: الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ، كَمَا أَنَّ الْحُمَّى بَرِيدُ الْمَوْتِ.ابن القيم

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمْ الْجُمُعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنْ الْغَافِلِينَ) رواه مسلم

فإذا وجد الإنسان أنه لا تتغير حاله عند سماع الموعظة، أو الآيات، أو في مجالس الذكر فعليه أن يخاف، وأن يُراجع قلبه، يحضر خُطب الجُمع ومجالس الذكر ويسمع الآيات تُتلى في الصلاة وفي خارج الصلاة ومع ذلك لا ينتفع، يرى الآيات ويمر بالعِبر والعِظات ولكنه لا يعتبر ولا يتعظ، فهذا يدل على خلل في القلب يُخشى معه أن يُطبع على هذا القلب فلا ينتفع، والله -تبارك وتعالى- يقول:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ [سورة الأنفال:24] فإذا ترك الإنسان الاستجابة والمُبادرة إلى أمر الله -تبارك وتعالى- والانقياد التام لأوامره، واجتناب مساخطه فإنه قد يُطبع على القلب. خالد السبت

قال ابن عاشور : قوله تعالى (خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أبصارهم غشاوة)

هذه الجملة جارية مجرى التعليل للحكم السابق في قوله تعالى (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) وبيان لسببه في الواقع ليدفع بذلك تعجب المتعجبين من استواء الإنذار وعدمه عندهم ومن عدم نفوذ الإيمان إلى نفوسهم مع وضوح دلائله ، فإذا عَلم أن على قلوبهم ختماً وعلى أسماعهم وأن على أبصارهم غشاوة عَلِمَ سبب ذلك كله وبطل العجب.

الختم يكون على القلب والسمع، والغشاوة على الأبصار، كما قال تعالى (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً)23الجاثية

والغشاوة: الغطاء على العين يمنعها من الرؤية.

فإن قيل لم خص القلب بالختم دون سائر الجوارح ؟ فالجواب : لأنه محل الفهم والعلم.

فإن قيل لم خص الله هذه الأعضاء بالذكر؟ فالجواب: قيل إنها طرق العلم، فالقلب محل العلم وطريقه السماع أو الرؤية.

فإن قال قائل : إن الله بيّن أنه ختم على قلب هؤلاء وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة ، فكيف يعاقبهم الله وقد جعل فيهم هذه الأمور المانعة من الإيمان ؟

الجواب : إن القرآن بيّن أن هذا الطبع وهذا الختم لا يأتي الإنسان إلا بسبب ذنب من ذنوبه ، فهو جزاء وفاق على بعض الذنوب .

وقد دلت آيات كثيرة على أن الله عز وجل يسبب للإنسان الضلالة بسبب ارتكاب الذنوب كما يسبب له الهدى بسبب الطاعات ، قال تعالى (بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) (الباء) في قوله (بِكُفْرِهِمْ) سببية، فبيّن أن هذا الطبع بسبب كفرهم، وكقوله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) وكقوله (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) وكقوله تعالى (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً) (أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (يونس 99)

بين الله للناس طريق الهدى وطريق الردى وأعطاه العقل ليختار

17) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ

وفي الحديث القدسي(وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ)رواه مسلم

صحابي دخل الجنة ولم يسجد لله سجدة عمرو بن ثابت المعروف بالاصيرم من بنى عبد الاشهل يابى الاسلام ، ولم يسلم مع من اسلم من قبيلتة عندما عرض عليهم سعد بن معاذ رضى الله عنه عليهم الإسلام، فلما كان يوم احد قذف الله الاسلام فى قلبه، ومات من وقتة ، فذكروه لرسول الله صلى الله علية وسلم ، فقال: ((هو من اهل الجنة))

أخبر صلى الله عليه وسلم، أنه دخل الجنة ولم يسجد لله سجدةً قط ، فالله تعالى يعطي الثواب الجزيل على العمل اليسير تفضلاً منه على عباده، وإن كان عمله قليلاً.

نؤمن بأن الله ارحم الراحمين ،إن أقبل عليه العبد صادقا فتح له أبواب الهداية ، وإن ولى مدبرا،فهو من أختار الشقاء.

⇦قوله تعالى (على قُلُوبِهِمْ) القلب سمي بذلك قيل : لأنه خالص كل شيء ، وقيل : لسرعة تقلبه

⇦قوله تعالى (خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ) فيه أن طرق الهدى إما بالسمع وإما بالبصر وإما بالقلب، فهؤلاء ختم الله على قلوبهم: فلا تعي ولا تفقه ولا تتعظ ولا تنزجر ولا تتأثر، وختم على سمعهم: فلا تسمع ما تنتفع بها، وجعل على أبصارهم غطاء: فلا يرى ما ينفعه، بل يرى ما يضره ويهلكه.

⇦قوله تعالى (خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ)

قال القرطبي: قال أهل المعاني: وصف الله قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالختم والطبع والضيق والمرض والريْن والموت والقساوة والانصراف والحميّة والإنكار

⇦فقال في الإنكار (فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

⇦وقال في الحمية (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ)

⇦وقال في الانصراف (ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ)

⇦وقال في القساوة (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) وقال (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ)

⇦وقال في الموت (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ)

⇦وقال في الرين (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

⇦وقال في المرض (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

⇦وقال في الضيق (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً)

⇦وقال في الطبع (فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ) وقال في الختم (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

وقد تكون في إفراد السمع لطيفة :

❶لأن السمع لا يمكن أن يدرك عدداً من المسموعات ـ إدراكاً معه فهم وضبط ـ في وقت واحد أبداً.

❷لأن السمع مصدر، والمصدر لا يجمع، أما الأبصار والأفئدة فأسماء مجموعة.

3) إن القلوب كانت متفاوتة واشتغالها بالتفكر في أمر الإيمان والدين مختلف باختلاف وضوح الأدلة ، وبالكثرة والقلة وتتلقى أنواعاً كثيرة من الآيات فلكل عقل حظه من الإدراك ، وكانت الأبصار أيضاً متفاوتة التعلق بالمرئيات التي فيها دلائل الوحدانية في الآفاق ، وفي الأنفس التي فيها دلالة ، فلكل بصر حظه من الالتفات إلى الآيات المعجزات والعبر والمواعظ ، فلما اختلفت أنواع ما تتعلقان به جمعت وأما الأسماع فإنما كانت تتعلق بسماع ما يُلقى إليها من القرآن فالجماعات إذا سمعوا القرآن سمعوه سماعاً متساوياً وإنما يتفاوتون في تدبره والتدبر من عمل العقول فلما اتحد تعلقها بالمسموعات جعلت سمعاً واحداً.

وتقديم السمع على البصر في كثير من الايات ؟ لأنه الوسيلة لتلقي كلام الله وبلوغ دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وما أشبه ذلك.

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) أي: ولهؤلاء الكفار عقوبة عظيمة في نار جهنم، فإن مصير الكفار في نار جهنم يعذبون أشد العذاب، يعذبون جسدياً ونفسياً.

الفرق بين العظيم والكبير : أن العظيم نقيض الحقير والكبير نقيض الصغير فكأن العظيم فوق الكبير

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) 10

⌧قال الشوكاني : ذكر سبحانه في أول هذه السورة المؤمنين الخلص ، ثم ذكر بعدهم الكفرة الخلص ، ثم ذكر ثالثاً المنافقين وهم الذين لم يكونوا من إحدى الطائفتين ، بل صاروا فرقة ثالثة ؛ لأنهم وافقوا في الظاهر الطائفة الأولى ، وفي الباطن الطائفة الثانية ، ومع ذلك فهم أهل الدرك الأسفل من النار

⌧فإن قال قائل : لماذا كان التحذير من المنافقين أشد من الكفار ؟ فالجواب : نظراً لخطرهم العظيم ، ولالتباس أمرهم ، وتسميهم باسم الإسلام ، بخلاف الكافر فإنه معلوم كفره فيجتنب.

⌧قال ابن كثير: نزلت صفات المنافقين في السور المدنية ، وذلك لأن مكة لم يكن بها نفاق ، بل كان الأمر في مكة على خلاف النفاق ، فكان كثير من أهل الإسلام بمكة يخفون إسلامهم ويسرون بإيمانهم خوف القتل من المشركين ، أما المدينة فلما كثر فيها المسلمون وقويت شوكتهم بدأ أهل الكفر يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر خوف السيف.

⌧واعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي ، والنفاق العملي ، سبب نفاقهم مداومتهم على الكذب ، فالكذب أصل النفاق وأساسه.

عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ : (إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ مُجَانِبٌ لِلإِيمَانِ) .صححه الالباني

اما النفاق الاعتقادي: فهو الذي ذكره الله تعالي عن المنافقين انهم اذا جاء المؤمنين قالوا امنا واذا راحوا لليهود قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون يخادعون الله وهو خادعهم هذا هو النفاق الاعتقادي ليسوا مؤمنين

النفاق العملي : هو الاربع الذي حدثها النبي صلى الله عليه وسلم (اذا حدث كذب واذا خاصم فجر واذا وعد اخلف واذا اؤتمن خان)

اعمال هي سبب هذا البلاء العظيم في الدين وهو: الكذب الخيانه والغدر القاسم المشترك بينهم الكذب

وعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا)

الفروق بين النفاق الأكبر (الاعتقادي) والنفاق الأصغر (العملي):

❶ أن النفاق الاكبر يخرج من الملة، والنفاق الأصغر لا يخرج من الملة.

❷النفاق الأكبر اختلاف السر والعلانية في الاعتقاد ، و النفاق الأصغر اختلاف السر والعلانية في الأعمال دون الاعتقاد.

❸ النفاق الأكبر لا يصدر من مؤمن، والنفاق الأصغر فقد يصدرمن المؤمن.

❹النفاق الأكبر صاحبه مخلد في النار، أما النفاق الأصغر فإن صاحبه يعذب في النار ومآله الى الجنة .

(مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) يقول تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر، أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فأكذبهم الله بقوله : (وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) ، لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين.

تعالى (واليوم الآخر) أي يوم القيامة ، وسمي آخراً لأنه لا يوم بعده .

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا) الخداع : الإخفاء ، فالذي يخادع يظهر شيئاً ويخفي شيئاً .

(وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ)

قال ابن كثير : قوله تعالى (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا) أي : بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر ، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين ، كما قال تعالى (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ) ؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله (وَمَا يَخْدَعُونَ إلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} يقول : وما يَغُرُّون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم ، وما يشعرون بذلك من أنفسهم ، كما قال تعالى (إنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ

وقال الشوكاني: الإشعار بأنهم لما خادعوا من لا يخدع كانوا مخادعين لأنفسهم ، لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن، وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه وما يشعر بذلك

(وَمَا يَشْعُرُونَ) أي ما يشعر هؤلاء أن خداعهم على أنفسهم مع أنهم يباشرونه ، ولكن لا يحسون به

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) المرض هو اعتلال الجسم، ومرض القلب خروجه عن صحته واعتداله، فهؤلاء قلوبهم مريضة، وهذا المرض الذي في قلوبهم هو مرض الشك والنفاق الناتج عن ضعف يقينهم وإيمانهم ، في وصف المنافقين عن ابن عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ؛ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً)مسلم (العائرة : الحائرة)

في الحديث بيان حال المنافق، بأنه ليس له ثبات على الإيمان، بل هو مع المؤمنين في ظاهره ومع الكافرين بباطنه، وأيضاً فهو دائماً حريص على المنافع الدنيوية، فإذا كان هناك نفع من المؤمنين قال: أنا منكم ، وإن رأى منفعة عند غيرهم، قال: أنا معكم.

كما قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) سورة النساء 141

وكما بين حالهم في آية أخرى: (مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا) سورة النساء 143

في أصعب الظروف والأوقات تظهر عداوتهم عبد الله بن أبي ، حيث قام في غزوة أحد بالإنسحاب بثلثي الجيش قائلاً : ما ندري علام نقتل أنفسنا ؟ ومتظاهراً بالاحتجاج بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك رأيه وأطاع غيره ، مع أنه كان بإمكانه أن يرفض الخروج من بدايه الأمر إلا أنه أراد أن يحدث البلبله والإضطراب في جيش المسلمين على مرأى ومسمع من العدو.

في غزوة الأحزاب عند ما تكالب الأعداء على المسلمين، صمد المسلمون وتفائلوا وأيقنوا صدق موعود الله ورسوله وسلموا لله أمرهم، أما المنافقون وضعفاء النفوس تزعزت قلوبهم عند رؤيه الجيش العظيم ، وظنوا بالله ورسوله السوء ، ولم يكتفوا بذلك ، بل قاموا بإضعاف معنويات بعض المسلمين وقالوا

عندما بشر الرسول أصحابه بأنه أوتي مفاتيح الشام وفارس واليمن :- " كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط " . الرحيق المختوم ص 302

واليوم صور جديدة للمنافقين ، الذين يضعفون صفوف الملسمين ، ويذيعون الخوف بينهم نسأل الله العفو والعافية .

(فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً) وقد اختلف العلماء في تأويل هذه الآية : فقيل : المراد الدعاء عليهم بزيادة المرض ، وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم.

الآية فيها دليل على أن مرض القلب وفساده – إذا لم يعالجه صاحبه – أنه يزيد هذا المرض ويتفاقم، ويكون من أسباب قسوته ومرضه وهلاكه، لأن الذنوب والمعاصي سبب لمرض القلب، ومرض القلب أخطر من مرض الجسد لأنه يقتل إيمانه حتى يهلكه فلا يبقى منه شيء.

المريض يجد طعم الطعام على خلاف ما هو عليه، فيرى الحامض حلوًا، والحلو مرًّاوكذلك هؤلاء المنافقون يرون الحقَّ باطلًا، والباطل حقًّا. (ابن رجب الحنبلي)

الآية (فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً) فيها دليل على أن من عقوبة المعصية المعصية بعدها، كما سبق في آيات سابقة (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) وكقوله (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) وكقوله تعالى (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً)

بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها.

كما قال تعالى: (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

قال ابن القيم : ومرض القلب نوعان : مرض شبهة وشك ، ومرض شهوة وغي ، وكلاهما في القرآن

قال تعالى في مرض الشبهة (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً) ، وأما مرض الشهوات فقال تعالى (يا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً) فهذا مرض شهوة الزنا ، وقال عن مرض الشبهات : هو أصعبهما وأقتلهما للقلب.

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أي مؤلم موجع .

عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم من سفر، فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب، فزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بعثت هذه الريح لموت منافق»، فلما قدم المدينةَ فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات

قال النووي: أي: عقوبةً له، وعلامة لموته، وراحةً للبلاد والعباد به.

(بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) أي : بتكذيبهم وهو قولهم (آمنا بالله وباليوم الآخر)، وفي قراءة أخرى (يُكَذِّبُون) أي يكذبون بالله ورسوله، والمنافقون اجتمع فيهم الوصفان: فهم كاذبون في دعواهم الإيمان، ومكذبون لله ولرسوله، كما قال تعالى (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) ، وقال تعالى (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً)

من الفوائد المستفادة من الايات :

❶مكر المنافقين ، وأنهم أهل مكر وخداع ، ولذلك قال تعالى في سورة المنافقين (هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ)4المنافقون فحصر العداوة فيهم ، لأنهم مخادعون .

❷ أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله كما قال تعالى (وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ).

❸أن القلوب تمرض كما تمرض الأبدان ، وأن مرض القلوب أعظم وأخطر من مرض الأبدان ،

قال ابن القيم: والرجل هو الذي يخاف موت قلبه لا موت بدنه ، إذ أكثر هؤلاء الخلق يخافون موت أبدانهم ولا يبالون بموت قلوبهم.

⇦والعبد يدعو الله دائماً وأبداً بتثبيته على الحق ، يدعو ويقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك

وأن يدعو الله أن يكون سليماً يقول (اللهم إني أسألك قلباً سليماً ..)

وأن يحذر من التساهل في أمر القلب (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ) رواه مسلم

وأهم سبب لحياة القلب الاستجابة لله ولرسوله، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)24 الانفال

وإذا صح القلب صح الجسد ، (أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ, وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ, أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ) أخرجه البخاري في الصحيح

وأن يحذر من قسوة القلب ، كما قال تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله)

❹: أن من عقوبة المعصية المعصية بعدها.

❺ :التحذير من الكذب وأنه من صفات المنافقين ،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) رواه البخاري ومسلم

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) رواه البخاري ومسلم

❻ فيه دليل على أن الله لا يعاقب أحداً إلا بسبب ذنبه ومعصيته لقوله (بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

كما قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ).

وقال تعالى (فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ)

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ). [البقرة: 11، 12](12)

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) يخبر تعالى عن المنافقين أنهم إذا قال لهم أحد من الناس : لا تفسدوا في الأرض بالنفاق وموالاة اليهود والكافرين ردوا قائلين

قال القرطبي : قوله (لاَ تُفْسِدُواْ) " لا " نهي ، والفساد ضدّ الصلاح ، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدّها

والمعنى في الآية : لا تُفسدوا في الأرض بالكفر وموالاة أهله ، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205)

(قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) فجمعوا في قولهم هذا بين أمرين كبيرين : ❶العمل بالفساد في الأرض ، ❷وإظهار أنه ليس بإفساد بل هو صلاح ، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً

🗐 قال بعض العلماء: تصوروا الفساد بصورة الصلاح، لما في قلوبهم من المرض فكانوا كما قال الله فيهم (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً)

⇦أكبر خطورة عندما نقيس صحة العمل وعدم صحته بالعقول والأهواء ، والظروف والعادات ، فليس هذا المقياس الصحيح لاستقامتك أو انحرافك ، المقياس الصحيح هو النصوص ، وتحكيم النصوص ، في الأقوال والأعمال ، فالحلال ما أحل الله وليس ما وافق هواك وظروفك ومجتمعك ، والحرام ما حرم الله ، وليس ما وافق هواك وظروفك ومجتمعك .

(أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ) هذا كلام مستأنف وجواب من الله تعالى رداً على هؤلاء المنافقين ، فإنه لا أعظم إفساداً ممن كفر بآيات الله ، وصد عن سبيل الله، وخادع الله وأولياءه ، ووالى المحاربين لله ورسوله وزعم مع هذا - أن هذا إصلاح ، فهل بعد هذا الفساد فساد ؟

(وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ) أي : ولكن لا يحسون ويفطنون لانطماس نور الإيمان في قلوبهم

🗐قال ابن القيم: تأمل كيف نفى عنهم الشعور في هذا الموضع، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل أن يكون الرجل مفسداً ولا شعور له بفساده البتة، مع أن أثر فساده مشهور في الخارج، مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه

🗐قال زيد بن أسلم ، ومحمد بن كعب : قال رجل من المنافقين في غزوة تبوك : ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ، ولا أكذب ألسنا ، ولا أجبن عند اللقاء - يعني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - فقال عوف بن مالك : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فذهب عوف ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث بحديث الركب نقطع به عنا الطريق(فرد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالايات (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ) التوبة

الفوائد من الايات :

❶ أعظم الخطر أن يُزيّن للإنسان عمله .

❷فيه أن أهل النفاق والفساد والشر يرتكبون الكبائر ويزعمون أنهم أهل إصلاح ، ومما يدل على ذلك ، قوله تعالى عن فرعون أنه قال عن موسى عليه السلام (إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26))

❸ فيه الإنكار على أهل الفساد وتبيين ضلالهم.

❹ الحذر من التشبه بصفات المنافقين.

(13) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ)

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ) يقول تعالى : وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس أي كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه

قال أبو السعود : قوله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ) من قِبَل المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف إثرَ نهيهم عن المنكر إتماماً للنُّصح وإكمالاً للإرشاد

(قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ) قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، يعنون ـ لعنهم الله ـ أصحاب رسول الله

🖂السفيه : هو الذي لا يعرف مصالح نفسه ضعيف الرأي.

🖂قال القرطبي : وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه في خفاء واستهزاء فأطلع الله نبيّه

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ) ألا أنهم هم السفهاء، فأكد وحصر السفاهة، ولكن لا يعلمون للرَّينْ الذي على قلوبهم فيهم

في هذه الآية يرد الله عليهم، ويخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة، لأن حقيقة السفه جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها ، وهذه الصفة منطبقة عليهم

(وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ) يعني ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى.

الفوائد من الايات :

❶ :وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن ذلك دعوة أهل النفاق إلى الإيمان وترك النفاق.

❷ :فيه أن أعداء الدين دائماً يصفون أهله بأقبح الصفات ، فالرسل وصفهم قومهم بالسحر والجنون والكهانة

كما قال تعالى (كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52)

❸:فيه أن كل من لم يؤمن بالله فهو سفيه ، كما قال تعالى (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

❹ :فيه دفاع الله عن المؤمنين كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

❺: ذم الجهل بدين الله وتعاليمه.

❻ :أن عدم العلم سبب للضلال .

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) البقرة: 14، 15

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا) قال ابن كثير : يقول تعالى وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنا وأظهروا لهم الإيمان والموالاة غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وليشركوهم فيما أصابهم من خير ومغنم.

(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) أي: وإذا خلوا إلى شياطينهم: أي سادتهم وكبراؤهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين

التلوّن من صفات المنافقين.

والشيطان في لغة العرب : هو كل عات ومتمرد ، سواء كان من الجن أو من الإنس أو من غيرهما ، وقد جاء في القرآن إطلاق الشياطين على العتاة المتمردين من الإنس والجن ، كما قال جل وعلا (شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً) وكما هذه الآية (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ) أي : رؤسائهم وعتاتهم المتمردين

(قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) قالوا : إنا معكم ، قال ابن عباس : أي إنا على مثل ما أنتم عليه

(إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) أي نستهزئ بالقوم ونلعب بهم

(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) عن ابن عباس : قال : يسخر بهم للنقمة منهم

قال أبو حيان : وفي مقابلة استهزائهم بالمؤمنين باستهزاء الله بهم ما يدل على عظم شأن المؤمنين وعلو منزلتهم ، وليعلم المنافقون أن الله هو الذي يذب عنهم ويحارب من حاربهم

وهذا جزاء لهم، على استهزائهم بعباده، فمن استهزائه بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين، لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزائه بهم يوم القيامة، أنه يعطيهم مع المؤمنين نورا ظاهرا، فإذا مشى المؤمنون بنورهم، طفئ نور المنافقين، وبقوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع،

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ

📄قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله مبيناً ما يوصف الله به وما لا يوصف به

❶ إذا كانت الصفة نقصاً لا كمال فيها ، فهي ممتنعة في حق الله تعالى كالموت ، والجهل ، والنسيان ، والعجز .

❷ وإذا كانت الصفة كمالاً لا نقص فيها فإن الله يوصف بها مطلقاً ، كالحياة ، والعلم ، والسمع ، والعزة.

❸وإذا كانت الصفة كمالاً في حال ، ونقصاً في حال لم تكن جائزة في حق الله تعالى ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق ، بل يُفصّل فيها : فتجوز في الحال التي تكون كمالاً ، وتمتنع في الحال التي تكون نقصاً ، وذلك كالمكر ، والكيد ، والخداع ، فهذه صفات تكون كمالاً إذا كانت في مقابلة من يعاملون الفاعل بمثلها ، لأنها حينئذ تدل على أن فاعلها قادر على مقابلة عدوه بمثل فعله أو أشد، ولهذا لم يذكرها الله تعالى من صفاته على سبيل الإطلاق، وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها،

كقوله تعالى (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ)30الأنفال وقوله (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً)17الطارق وقوله (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)142النساء وقوله (قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) البقرة 14

📄وأما الخيانة فلا يوصف بها مطلقاً لأنها صفة ذم مطلقاً ، ولذلك لم يذكر الله أنه خان من خانوه ،

فقال تعالى (وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ)71الأنفال ولم يقل فخانهم

قال تعالى (قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) البقرة 14

قال تعالى (وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) أي : يزيدهم ، في طغيانهم : أي فجورهم وكذبهم ، يعمهون : أي حائرون مترددون.

📄الفوائد من الايات

❶ أن الجزاء من جنس العمل فمن استهزأ بالله استهزأ الله به ، وهذه قاعدة معروفة بالشرع أن الجزاء من جنس العمل

قال تعالى (﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ 5الصف وقال تعالى (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)17محمد وقال تعالى (ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم)127التوبة

قال ﷺ (من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة) رواه مسلم قال ﷺ (الراحمون يرحمهم الله) رواه أبو داود، قال ﷺ (من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته) رواه مسلم ،

قال ﷺ (مَن أخَذَ أمْوالَ النَّاسِ يُرِيدُ أداءَها أدَّى اللَّهُ عنْه، ومَن أخَذَ يُرِيدُ إتْلافَها أتْلَفَهُ اللَّهُ)رواه بخاري

قال ﷺ(ومن وصل صفًّا وصلَهُ اللهُ ، ومن قطع صفًّا قطعَه اللهُ)السلسلة الصحيحة

❷ أن الله قد يملي للإنسان ويطيل عمره استدراجاً

كما قال تعالى (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً)

وقال تعالى (فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ)

وعن عقبة بن عامر -رضي الله عنه - عن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال : " إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج " . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) الأنعام44

قال صلى الله عليه وسلم (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) متفق عليه

❸ أن الله يستهزئ بمن يستهزئ به ، فيوصف الله بهذا الوصف إذا كان في مقابلة استهزائهم

قال تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) 16

(أُولَئِكَ) أي المنافقون الموصوفون بتلك الصفات

(الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى) أي بذلوا الهدى ثمناً للضلالة ، فاختاروا واستحبوا الضلالة وهي الكفر والنفاق بالهدى الذي هو الإيمان بالله تعالى

قال ابن الجوزي : واشتروا: بمعنى استبدلوا ، والعرب تجعل من آثر شيئاً على شيء مشترياً له ، وبائعاً للآخر ، والضلالة والضلال بمعنى واحد.

قال السعدي : وهذا من أحسن الأمثلة ، فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة ، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن ، فبذلوا الهدى رغبة عنه في الضلالة ، هذه تجارتهم فبئس التجارة .

(فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) أي ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة ، وكيف تربح وهم اشتروا الضلالة وباعوا الهدى ؟

قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

قال تعالى (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) أي : وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك

الفوائد من الايات:

❶ ذم المنافقين وأنهم اختاروا الفاني العاجل على الباقي الآجل.

❷ أن كل تجارة لا تكون لله وبالله فهي خاسرة باطلة.

⇦ومن التجارة الناجحة قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)} [الصف]

🗐بعض صفات المنافقين:

❶ : الكذب والتكذيب لله ولرسوله

. قال تعالى (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) ، وقال تعالى (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

❷ : أذى الرسول أو عيبه أو لمزه

قال تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)

❸: التولي والإعراض عن حكم الله ورسوله

قال تعالى (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) .

❹: مظاهرة الكافرين ومعاونتهم على المؤمنين

قال تعالى (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً)

❺: المسرة بانخفاض دين الرسول أو الكراهية لانتصار دينه

قال تعالى (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

❻ : الرياء

. قال تعالى (يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

❼ : ثقل العبادة عليهم

قال تعالى (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى)

❽: يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف

قال تعالى (والْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ).

المثل الناري في الكفار (منافقون خلص)

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) 18البقرة

ضرب المثل في القرآن لتقريب المعقول بالمحسوس

فمثل هؤلاء المنافقين، كمثل قومٍ كانوا في ظُلمة، فأوقدوا نارًا وهم بأمسّ الحاجة إليها، فأضاءت ما حولهم من أذًى فأبصروه حتّى عرفوا ما يَتّقون، فبينما هم كذلك إذ بنارهم قد انطفأت ! فأصبحوا لا يدرون ما يتّقون من أذًى

فكذلك المنافقون، كانوا في ظلمة الشّرك، فجاءهم الوحي وهم في أمسّ الحاجة إليه، فأسلموا، فعرفوا الحلال من الحرام، والخير من الشرّ، فبينما هم كذلك إذ كفروا وارتدّوا، فصاروا لا يعرفون الحلال من الحرام، ولا الخير من الشرّ، فأصبحوا في حيرة وضلال.

قال ابن القيم : شبه الله تعالى حال المنافقين في خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم بحال مستوقد النار ، وذهب نورها عنه بعد أن أضاءت ما حوله ، لأن المنافقين بمخالطتهم المسلمين وصلاتهم معهم ، وصيامهم معهم ، وسماعهم القرآن ، ومشاهدتهم أعلام الإسلام ومناره ، وقد شاهدوا الضوء ورأوا النور عياناً، ولهذا قال تعالى في حقهم (فهم لا يرجعون) إليه.

لماذا لا يرجعون ؟ لأنهم فارقوا الإسلام بعد أن تلبسوا به واستناروا، فهم لا يرجعون إليه.

وقال تعالى في حق الكفار (فهم لا يعقلون) لأنهم لم يعقلوا الإسلام ، ولا دخلوا فيه ، ولا استناروا به ، لا بل يزالون في ظلمات الكفر صم بكم عمي.

قال الخازن : لما ذكر الله تعالى حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان ، لأنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه ، ولأن المثل تشبيه الخفي بالجلي ، فيتأكد الوقوف على ماهيته وذلك هو النهاية في الإيضاح.

فكذلك هؤلاء المنافقون، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين، ولم تكن صفة لهم، فانتفعوا بها وحقنت بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم على ذلك إذ هجم عليهم الموت، فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب، وحصل لهم ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلم المعاصي على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار [وبئس القرار].

فلهذا قال تعالى [عنهم] : (صُمٌّ) أي: عن سماع الخير، (بُكْمٌ) [أي] : عن النطق به، (عُمْيٌ) عن رؤية الحق، (فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ) لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعا منهم.

، وهذا كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) 26الاحقاف

وكما قال تعالى (لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ)179 الأعراف

أن المعاصي لها تأثير على الإنسان ، فالله أصم آذان هؤلاء المنافقين ، فلا يسمعون الحق ، ولو سمعوا ما انتفعوا

قال ابن القيم مبيناً أن من أراد طلب العلم فعليه بالابتعاد عن المعصية وغض بصره وخطر إرساله: إنه -يعني غض البصر - يفتح له طريق العلم وأبوابه ، ويسهل عليه أسبابه ، وذلك بسبب نور القلب ، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائق المعلومات ، ومن أرسل بصره تكدر عليه قلبه وأظلم وانسد عليه باب العلم وطرقه.

لطائف المثل:

❶معنى السّين والتّاء في (استوقد).

⇦فالسّين والتّاء للطّلب، والمعنى أنّه ليس له نار اكتسبها من قِبَل نفسه، وإنّما استعارها من غيره

❷في الآية التفات.

فقد بدأ الله عز وجل المثل بجمع ضمير (مَثَلُهُمْ)، ثمّ أفرد في (اسْتَوْقَدَ)، و(حَوْلَهُ)، ثمّ عاد إلى جمع الضّمير (بِنُورِهِمْ) وفي (تَرَكَهُمْ)، ويسمّى هذا في البلاغة بالالتفات، والنّكتة في ذلك: أنّ المنافقين لمّا كانوا على الإيمان كانوا على قلب رجل واحد، فناسب أن يفرد الضّمير فقال: (استوقد) و(حوله)، ولمّا ذهب الله بهذا الإيمان تفرّقوا فناسب أن يجمع الضّمير في (بنورهم) و(تركهم)

❸الفرق بين النّور والنّار: قال تعالى:{ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ}، ولم يقل بنـارهم، لأنّ النّار فيها إشراق وإحراق، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو (النّور) وأبقى ما فيها من الإحراق وهو (الحرّ والأذى).

❹سرّ جمع الظّلمات وإفراد النّور: قال تعالى:{وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ}

(ظُلُمَاتٍ) أي: من الشّكّ، والكفر، والنّفاق (لاَ يُبْصِرُونَ): أي: لا يهتدون إلى سبيل الخير

وفي جمع الظّلمات وإفراد النّور قولان:

❶ أحدهما: أنّ الحقّ لا يتعدّد، وسبل الباطل لا تنحصر، كقوله تعالى:{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} [البقرة: من الآية257]، وقوله جلّ جلاله:{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: من الآية153]

❷: أنّ النّور أشرف من الظّلام، والعرب تُفرِد الشّريف، وتجمع ما دونه، قال تعالى:{أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} [النحل:48] فأفرد اليمين وجمع الشّمال، لشرف اليمين.

ثانيا المثل المائي المنافقون (المنافق المتردد)

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّـهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّـهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّـهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

🗎وفي هذا المثل تصوير بديع لحال المنافقين، الّذين يعيشون صراعا بين نداءات القرآن، ودوافع الشّيطان نفوسهم متردّدة مرتابة: أتنقاد إلى داعي الخير والإيمان، أم إلى جاذب الشرّ والكفران ؟

🗎حالهم كحال قوم أصابهم غيث من السّماء اختلطت فيه حياة وأنوار، ومزعجات وأكدار، فتركوا ما ينفعهم فرارا ممّا يشقّ عليهم.

(الصيّب): هو المطر، ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم إذا رأى المطرَ: ((اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا)) [رواه البخاري]

⇦وسمّي صيّبا لأنّه يصوب بشدّة، أي: ينزل من السّماء

والمشبَّه هو: القرآن والوحي، وكثيرا ما يشبَّه الوحيُ بالمطر، كقوله صلّى الله عليه وسلّم: ((إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا)) [متّفق عليه]؛ ذلك لأنّ النّاس كانوا في ظمأ وجدب الجاهليّة، فنزل الوحي الّذي هو بمثابة المطر للأرض، فأحيا الله تعالى به الأرض بعد موتها، وأخرج منها بركاتها.

(فِيهِ ظُلُمَاتٌ): ظلمات السّحاب أوّلا، ثمّ ظلمات اللّيل

والمشبّه هو: الشّبهات العالقة بالأذهان، يُثيرها الحقّ حتّى يُزيلها بعد ذلك

(وَرَعْدٌ):وهو الصّوت الّذي يُسمع من السّحاب، والمشبّه هو: آيات الإنذار والعقاب والوعيد

(وَبَرْقٌ): وهو الضّوء اللاّمع المشاهَد من السّحاب، والمشبَّه هو: الحجج والبراهين الّتي اشتمل عليها القرآن الكريم

🗐أمّا أهل الإيمان الحقّ فإنّهم ينتفعون بالمطر النّازل بكلّ ما أمكن، ولا يمنعهم ما في المطر من الظّلمات والرّعد والبرق من أن ينتفعوا به، فالأوامر والنّواهي هي امتحان بالطّاعة، والظّلمات لا بدّ من إزالتها حتّى يزول الشكّ ويحلّ اليقين، والرّعد تذكير للغافل اللاّهي، وإيقاظ للنّائم السّاهي، والبرق آيات بيّنات ينتفعون بها في الدّنيا والآخرة

أمّا المنافقون: فأثقل شيء عليهم آيات الأوامر والنّواهي

فكما قال تعالى:{وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً} [النساء: من الآية142]،

{وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة: من الآية54]،

{وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ} [التوبة: من الآية81]،

وفي التصدّق تراهم من {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة:79].

ولمّا كان الرّعد - وهو آيات الوعيد - لا يريدون سماعه، خشية أن تلين قلوبهم، فتراهم

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ): أي أناملهم

وذلك ما كان يفعله أسلافهم من قوم نوح عليه السّلام حيث قال:{وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً} [نوح:7]، وأقوام كلّ المرسلين:{جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ} [إبراهيم: من الآية9]

(مِنَ الصَّوَاعِقِ): من للسببية، أي: هم خائفون من أن ينزل الوحي فيستمعوا إلى القرآن فيؤمنوا بالنّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم

(حَذَرَ الْمَوْتِ): فهم يرون الإيمان بمثابة الموت، مع أنّه الحياة الطيّبة في الدّنيا والآخرة، ولكنّه موت - لشهواتهم ونزواتهم

(وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ): أي محيط بهم قدرةً، وعلماً، فلا يفوتونه ولا يُعجزونه

وقال ابن الجوزي : قوله تعالى (والله مُحيط بالكافرين) فيه ثلاثة أقوال

أحدها : أنه لا يفوته أحد منهم ، فهو جامعهم يوم القيامة.

والثاني أن الإحاطة : الإهلاك ، مثل قوله تعالى (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ)

والثالث : أنه لا يخفى عليه ما يفعلون ، ومثله قوله تعالى (قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)الطلاق

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ): رأينا حال آذانهم وكيف يسدّونها ؟

أمّا أبصارهم فلشدّة البيان في القرآن يكاد يأخذ بقلوبهم إلى الإيمان، ولكنّهم كانوا متردّدين، متّبعين لأهوائهم

(كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ): له صورتان -

➊أي: كلّما كثرت أموال المسلمين وانتصروا (مَشَوْا فِيهِ) وقالوا إنّا معكم، وإنّ دين محمّد صلّى الله عليه وسلّم صدق، واستقاموا عليه

➋وكلّما نزل القرآن بما تهوى أنفسهم كمناكحتهم للمسلمين، وإرثهم منهم، والقسم لهم في الغنائم، وعصمة دمائهم من القتل، قالوا: هذا هو الحقّ

(وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا): (قاموا) أي: وقفوا، ولهذا التّمثيل صورتان أيضا

➊أي: إذا أصاب المسلمين الهلاك والهزيمة، قالوا: لسنا معكم، وتوقّفوا عن متابعتهم

وذلك كقوله عزّ وجلّ:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ} [الحجّ من:11]

➋وكلّما نزل من القرآن ما فيه مشقّة وشدّة، توقّفوا عن المسير مع المسلمين، كما قال تعالى:{وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50)

(وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ): فيه تخويف لهم وتحذير من العقوبة، فلا ينتفعون بسماع الحقّ - أصلاً

(إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ): فلا يعجزه شيء

قال الطّبريّ رحمه الله:" إنّما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كلّ شيء في هذا الموضع؛ لأنّه حذّر المنافقين بأسَه وسطوتَه، وأخبرهم أنّه بهم محيط، وأنّه على إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير "اهـ